((أرنولد توينبي وصلته بالمؤسسة الاستعمارية البريطانية)) 1889-1975م

م.د. محمود صالح سعيد
قسم التاريخ
كلية الآداب / جامعة الموصل

تاريخ تسليم البحث: 2011/10/2 ؛ تاريخ قبول النشر: 2011/12/1

ملخص البحث:

ينطلق هذا البحث من فرضية أساسية تقول أن المؤرخ الغربي أيّاً كان انتمائه ومهما بلغ به المستوى العلمي والمعرفي من رقي فهو يعبّر عن بيئته، ويمثّل خصائص حضارته ، وتنطبق هذه الفرضية انطباقاً جلياً على المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي الذي هو احد أبناء الحضارة الغربية، وهو أيضا ابن المؤسسة الاستعمارية البريطانية ، التي خدم فيها سنوات طويلة من حياته ، وقدَّم خدمات جليلة لها تمثَّل بالإشراف على الحوليات الخاصة بالشؤون الدولية، وتقديم دراسات وبحوث أسهمت في تعميق المعرفة الدولية لديها ، كما انه قدم منظوراً حضارياً في تفسير التاريخ يعد بحق واحداً من ابرز التنظيرات المتعلقة بفلسفة التاريخ، وبالتالي رسم العلاقة بين مجتمعه الغربي وبقية المجتمعات، لاسيما المجتمع الإسلامي.

إن هذا البحث يحاول أن يجيب على سؤال رئيس ومهم وهو: ما هي صلة المؤرخ أرنولد توينبي بالمؤسسة الاستعمارية البريطانية ؟ وكيف أثّرت هذه الصلة على نتائج الأبحاث التي قام بها، ولا سيما منظوره في فلسفة التاريخ ؟ وكيف نظر إلى المجتمع الإسلامي وعلاقته بالحضارة الغربية ؟ وأخيراً كيف نظر أرنولد توينبي إلى العالم الإسلامي، الذي يشكل التحدي الأول للحضارة الغربية؟ وبالتالي نصل إلى السؤال الأكثر جوهرية وهو، هل إن آراءه في التاريخ والسياسة والحضارة تأثرت بالمؤسسة الاستعمارية البريطانية أم العكس؟

Arnold Toynbee and his relation with the Britain imperialism institution 1889-1975

Lect. Dr. Mahmood Saleh Saeed
History Dept.
College of Arts / Mosul University

Abstract:

This research starts off from the basic supposition which states that the western historian presents his environment and his own civilization features whatever advanced his belonging and his scientific knowledge was. This theory applies clearly on the Britain historian prof. Arnold Toynbee as a citizen of the western civilization, the son of the Britain imperialism institution also؛ he served there many long years of his life and he made important tasks there like: supervising the international affairs survey, presenting studies and researches helped in developing the international knowledge in it. He presented the relationship between his western society and other societies, especially the Islamic one which was the most threatening to his western civilization. He viewed the Islamic world from two points; first the matter of Westernization, second the unity of Pan – Islamic world.

المقدمة:

يعد المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي واحداً من ابرز المؤرخين الغربيين المعاصرين، الذي كان له شهرة واسعة في العالم، من خلال آرائه وأبحاثه وكتاباته، فضلاً عن تقلّده المناصب الإدارية والأكاديمية المهمة في بريطانيا التي وضعته في مصافي المؤرخين البارزين في العالم.

ينطلق هذا البحث من قناعة ترى أن المؤرخ أرنولد توينبي واحد من ابرز الشخصيات البريطانية التي قدّمت آراءً جريئةً ومهمةً في التاريخ العالمي بشكل عام وتاريخ العالم الإسلامي بشكل خاص، ورغم التباين الظاهر في مواقف هذا الرجل مع المؤسسة الاستعمارية البريطانية التي لا يمكن أن ينكرها احد، إلا أن المدقق في خفايا نصوصه يجد ثمة تقارب واضح في الأفكار والتي أجدها داعمة لتوجهات المؤسسة الاستعمارية البريطانية وتعمل في خدمتها، لذلك سيركز البحث على إبراز الخطوط العريضة والأساسية لفكر أرنولد توينبي، ومن ثم إبراز العلاقة الفكرية التي تربطه بالمؤسسة الاستعمارية البريطانية على ضوء ما كتبه وصرّح به من شهادات وآراء وتحليلات تخص العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي.

إن ما يتميز به المؤرخ توينبي قدرته على انتقاء أحداث التاريخ في تدعيم فلسفته ورؤيته، فهو عندما يتحدث عن العالم الإسلامي وتاريخه لا يتحدث كغيره من المستشرقين بل نراه ينتقي

بعض الأمثلة والروايات التي تدعم نظرته ، لذلك سنركز في بحثنا على تناول الكيفية التي انتقى بها آراءه وكيف أسهمت هذه الآراء في تدعيم توجهات المؤسسة الاستعمارية البريطانية من خلال ما يوفره من جهد فكري يساهم في تبرير الغزوات الاستعمارية للبلاد الإسلامية.

لا شك أن أفكار توينبي ليست كلها موضع رضا وقبول وهذا أمر طبيعي إزاء مفكر ولد وعاش في بيئة غربية وفي مُناخ أوربي ، فقد كانت بلاده تعد من اكبر الدول الاستعمارية في العالم وكان نفسه ينتمي إلى أسرة من الطبقة الوسطى التي لها تقاليدها وصلتها بالمؤسسة الاستعمارية لذلك من الطبيعي أن نجد في آرائه ما يعطي للمرء قناعة بصلتها بتلك المؤسسة.

لن يكرّس هذا البحث وقتاً للوقوف على ايجابيات موقف توينبي من القضايا العربية والإسلامية لاسيما مسألتي فلسطين والوحدة العربية والعلاقة مع الصهيونية فهي قد أخذت حيزاً ليس بالقليل في كتابات المؤلفين العرب والعراقيين بل سنحلل السطور التي كتبها والتي أجدها تخدم توجهات المؤسسة الاستعمارية الغربية التي تشكل بريطانيا رأس الحربة فيها.

المبحث الأول
عصر أرنولد توينبي وفلسفته
أولاً/ حياته ومسيرته العلمية:

أرنولد .ج . توينبي Arnold. G. Toynbee مؤرخ ذو منظور فلسفي بريطاني. ولد في لندن في 14 نيسان/ ابريل عام 1889م من أسرة تعد من صفوة الطبقة الوسطى المعروفة بمكانتها الثقافية في المجتمع البريطاني([1])، كان والده يعمل موظفاً في إحدى الشركات ، وأمه تخرجت من قسم التاريخ في جامعة كمبردج Cambridge ([2])، وجدّه كان جرّاحاً مشهوراً وعضواً في الجمعية الملكية البريطانية، وعمّه كان مؤرخاً اقتصادياً ومصلحاً اجتماعيا([3]).

عُرفت أسرة توينبي بتدينها، وقد أثّر ذلك بشكل كبير على آرائه في التاريخ إذ تعتنق أسرته المذهب البروتستانتي([4]).

أكمل توينبي دراسته الابتدائية والثانوية في لندن، وتزوج من روزالندا Roselenda عام 1913م، ابنة استاذه المتخصص في الدراسات الكلاسيكية (اليونانية – الرومانية) جلبرت موراي Gelbert murray ، انجبت له ولدين. وفي عام 1946م انفصل عنها واقترن بعدها بابنة قسيس تدعى فيرونيكا Veronica ([5]). ومع هذا فإن القليل من المصادر تتناول حياته الشخصية في حين اشار بعضها إلى عدم وجود دراسات معمقة عن حياته ، ولكن هناك العديد من الدراسات التي تتناول أفكاره([6]).

قدّمت إلى توينبي العديد من العروض منها ان يكون كاهناً أو بحاراً كعمّه الآخر ولكن رأيه استقر اخيراً على التخصص في علم التاريخ الذي برز ميله نحوه منذ طفولته، فقرر الالتحاق بجامعة اكسفورد ، فقد درس الأدب الكلاسيكي (اليوناني واللاتيني) وكان تخصصه الأول في

تاريخ اليونان والرومان القديم فكان لها تأثير بالغ عليه فيما بعد في تشكيل رؤيته الفلسفية لاسيما من خلال تركيزه على أهمية الحضارة الهيلينية ودورها في التاريخ وعدّها مصدراً اولياً للحضارة الغربية المعاصرة([7]).

تعد جامعة أكسفورد Oxford university من أعرق الجامعات العالمية في مجال الدراسات الإنسانية ، وعندما بدا أرنولد توينبي حياته العلمية فيها عام 1908م، بدخوله كلية باليول Baliol College، وهي إحدى كليات اكسفورد ، كانت الدراسات التاريخية تمر في ذلك الوقت بمرحلة من الازدهار على يد مؤرخين بارزين كان لهم دور كبير في تنشيط الدراسات التاريخية وتوجيهها وضمّت مستشرقين بارزين من أمثال مرغوليوث Margoluth وهاملتون جب H. Gibb ، الا ان الاهتمام الاكبر في اكسفورد انصب على دراسة الحضارة الاغريقية القديمة وتقدير مثلها العليا في الديمقراطية والفردية ، وكانت كلية باليول وقتها تعد من اكبر مراكز الدراسات والبحوث الخاصة بالحضارة الإغريقية وخاصة عندما كان توينبي طالباً فيها . كان عميدها جويت Juitte وهو من أعظم مترجمي الفيلسوف اليوناني افلاطون Plato إلى اللغة الانكليزية وكان من طلبتها جلبرت موري G. Mury وزمرمن Zemarman وريتشارد لفنجستون R. Lefgenston وكل واحد من هؤلاء اصبح علماً في دراسة الحضارة الإغريقية والتي تأثر بهم توينبي اشد التاثير وهو يدرس الحضارة الإغريقية القديمة على أيديهم([8]).

تعلّم توينبي اللغة اليونانية واللاتينية ، كما تعلم الفرنسية والايطالية والالمانية واليونانية الحديثة،([9]) الا انه لم يتعلم العربية او التركية او الفارسية التي تعد ضرورية لكل من يروم دراسة الحضارة العربية والاسلامية او حضارة الشرق الأوسط، وهذا يدل على أن رؤية توينبي للمنطقة العربية والاسلامية قد استمدها من مصادر توراتية واستشراقية أكثر من اطلاعه المباشر عليها.

أصبح توينبي بعد تخرجه من كلية باليول عام 1912م زميلاً فيها وبقي حتى عام 1915م، ومن المعروف أن اكسفورد ترتبط بصلة وثيقة بالمؤسسة الاستعمارية البريطانية في ذلك الوقت فبحسب ما يذكر بنفسه ان كلّيته كانت قبل الحرب العالمية الأولى(1914–1918م) ، من عادتها استدعاء الطلبة امام السلطات في الكلية بعد انتهاء دراستهم في السنة الأولى، فيتم سؤالهم عن العمل الذي يرومون القيام به بعد تخرجهم من الجامعة فيقول توينبي:" اما اولئك الذين لم يكونوا يعرفون ، فكانوا عادة ما يدرجون ضمن من سينخرطون في السلك الوظيفي في الهند ، اعني سلك الموظفين البريطانيين في الهند اذا كان لديهم من الكفاءة ما يسمح لهم بذلك " ويضيف قائلاً: " كنا نعلم اننا نستطيع تعيينهم في سلك الوظائف في الهند وهو سلك كان له مركز مميز جداً وكان يضفي على حياة المشتغلين فيه كثيراً من الاستقرار "([10]) فكان مجرد الانخراط في كلية باليول في اكسفورد يعني ضمان وظيفة مرموقة في خدمة وزارة المستعمرات البريطانية مما يعني الترابط الوثيق الذي يصل بين المؤسسة الثقافية والعلمية البريطانية وبين

المؤسسة الاستعمارية ، لذلك لا نعجب ان تكون صلة توينبي بالمؤسسة الاستعمارية البريطانية وثيقة إلى درجة خدمته في كلية من مهمتها تزويد وزارة المستعمرات البريطانية بالموظفين اللازمين لأداء الخدمة في اهم واخطر بقعة استعمرتها بريطانيا والتي يطلق عليها "الدرّة في تاج المستعمرات البريطانية" . لذلك فإن مهمة توينبي لم تقتصر على تدريس التاريخ والقاء المحاضرات بل المساهمة في تزويد المؤسسة الاستعمارية البريطانية بالكفاءات وإعدادهم إعداداً لازماً لدورهم المستقبلي.

من جهة ثانية شارك أرنولد توينبي في الحرب العالمية الأولى والتحق بدائرة الاستخبارات السياسية في وزارة الخارجية البريطانية ، فدخل بذلك اهم وزارة تعمل في خدمة المؤسسة الاستعمارية البريطانية ، والمصادر التي بين أيدينا لا تتحدث عن المكان الذي خدم فيه إلا أن ثمة روايات تتحدث عن قيامه بتدوين بعض الفضائع التي ارتكبت خلال الحرب ، وقد اشترك في مؤتمر الصلح الذي عُقد في باريس عام 1919م([11]) والمثير في الأمر انه اشترك بصفة عضو ضمن الوفد البريطاني في قسم (الشرق الأوسط)، والذي يضم بعض البلاد العربية، التي كانت تابعة للدولة العثمانية، ([12]) بحجة ان تخصصه قريب من المنطقة ، فكان هذا يمثل أول احتكاك عملي بالعالم العربي والإسلامي الذي سيكون له مواقف كبيرة ومثيرة منها.

زادت رؤية ارنولد توينبي اتساعاً للعالم الإسلامي بعد عام 1919م عندما عين استاذاً للتاريخ البيزنطي واللغة اليونانية الحديثة في جامعة لندن، ولا شك ان التاريخ البيزنطي يرتبط بشكل وثيق بالتاريخ الاسلامي لذلك تعمقت رؤية توينبي للعالم العربي والإسلامي ولكفائته اصبح مديراً للمعهد الملكي البريطاني للشؤون الخارجية عام 1925م واستمر في عمله هذا لحين تقاعده عام 1955م([13]). واثناء ذلك أدار قسم الابحاث في وزارة الخارجية البريطانية للمدة ما بين 1943-1946م، وقبل ان يدير المعهد الملكي البريطاني أشرف منذ عام 1920م على تحرير حولية للشؤون الدولية Survey of International affairs وهي عبارة عن سلسلة من الكتب السنوية تتناول التاريخ الدولي، وتهدف هذه الحولية إلى تقديم معلومات وبيانات دقيقة عن احوال العالم للمسؤولين في الحكومة البريطانية تشتمل على كافة البيانات التي تريدها، ونتيجة لتلك الجهود فقد استدعته الخارجية البريطانية لتمثيلها في مؤتمر الصلح في باريس بعد الحرب العالمية الثانية(1939-1945م) ([14]).

ومن الطبيعي ان تتاح الفرصة لتوينبي من خلال إشرافه على الحولية الدولية والمناصب الإدارية الحساسة التي تقلدها ان يقوم بكتابة سلسلة من المحاضرات عن المشرق العربي([15]) تصب في ذات الاتجاه المرسوم للسياسة البريطانية لا سيما وان بريطانيا تمتلك مصالح في غاية الاهمية في هذه المنطقة لذا تأتي محاضراته كدليل على الأهمية الإستراتيجية التي تلعبها هذه المنطقة في ما يخص مكانتها لدى الدول العظمى.

لم يكتف ارنولد توينبي بالكتابة عن العالم العربي والإسلامي بل قام بالعديد من الأسفار والزيارات التي شملت العديد من الاقطار العربية فزار العراق ومصر والسودان وليبيا والمغرب، في خمسينيات وستينيات القرن المنصرم، وهناك ألقى المحاضرات وبين وجهة نظره حول القضايا المعاصرة التي تهم العالم العربي والاسلامي لاسيما قضية الوحدة العربية وفلسطين وتاريخ العالم الحديث واسلوب الحياة الغربية . وقد كان لكتابه "دراسة في التاريخ" اثر واضح في تنامي شهرته وذياع صيته على الساحة الفكرية والثقافية العالمية بعدما لعب دوراً مهماً على الساحة السياسية الخارجية([16]).

شهد ارنولد توينبي عصراً متفجراً من الافكار والفلسفات الوضعية تصارعت فيما بينها فكانت هناك الوجودية والقومية والشيوعية والاشتراكية إلى جانب الفلسفة الليبرالية الغربية التي بقي يدافع عنها طيلة حياته . لقد وجد بلاده تتعرض للدمار والخراب نتيجة الحروب الكارثية التي اوقعت نفسها بها بسبب من أطماعها الخارجية فحاول تقديم إجابات جوهرية عن اسئلة قد تسهم في رسم معالم سياسة خارجية جديدة وسط امواج عاتية تواجهها بلاده انذآك عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وبروز ما يعرف بحقبة الحرب الباردة[17] Cold war بين المعسكرين الليبرالي الذي تقوده الولايات المتحدة الاميركية والاشتراكي الذي كان يقوده الاتحاد السوفيتي(سابقاً) ، لذا حاول توينبي ان ينحو منحاً فلسفياً في دفاعه عن الليبرالية والفردية معبراً بذلك عن طبيعة صلته بالمؤسسة الاستعمارية البريطانية.

ثانياً/ مؤلفاته وفلسفته :

تقتضي الحاجة المعرفية التعرف على مؤلفات ارنولد توينبي الرئيسة حتى يستفيد القارئ كثيراً في فهم المنطلقات الفكرية والمواقف السياسية التي سيتخذها في تحليلاته وآرائه لاسيما تجاه العالم العربي. وسيكتفي البحث بتقديم الاطار العام لفلسفة توينبي التاريخية وابرز الاتجاهات التي تناولتها تلك المؤلفات.

ركزت مؤلفات ارنولد توينبي على ثلاثة اتجاهات رئيسة :

الاتجاه الاول: قدّم فيه دراسات تناولت التاريخ من زاوية السرد التاريخي للأحداث ، ويرجع ذلك إلى تعليمه الاكاديمي ودراسته لتاريخ الحضارة اليونانية والرومانية من تلك المؤلفات على سبيل المثال : "الفكر التاريخي عند الاغريق" Greek Historical thought الصادر عام 1924م([18]). وبدون شك فان لهذا البعد اهمية خاصة في تشكيل رؤيته وفلسفته للتاريخ اذ نلاحظ تخصيص مساحات كبيرة من كتاباته في تقديم ومدح الحضارة الاغريقية القديمة والتركيز الاهم على اثينا ودورها في الحضارة بوصفها النموذج الحضاري الديمقراطي الذي سعت إلى نشره في العالم الغربي حتى ان توينبي يبلغ به الامر في مدحه للحضارة الاغريقية الاثينية بشكل

خاص انه يفضلها حتى على تاريخ بلاده والسبب يرجع بحسب رأيه إلى قدرة تلك الحضارة على توحيد العالم الأوربي ثقافياً كما هو الحال بالنسبة إلى روما التي وحدت اوربا سياسياً وسبب تفضيله لهذه الحقبة لانه يجد فيها نوعاً من التعاصر الفلسفي بين الحضارة اليونانية والرومانية من جهة والحضارة الغربية من جهة اخرى([19])، لذلك لا نستغرب كثيراً إعجابه الكبير بالحضارة الإغريقية القديمة بوصفها اصل الحضارة الغربية وامها الشرعية.

الاتجاه الثاني: تناول فيها دراسات حول أحداث معاصرة عاشها وشاهدها وكان له دور فيها وذلك بحكم وظيفته التي شغلها وقد ذكر خلالها تفاصيل عن أحداث لم تخل من بعد تأملي وفلسفي مما يعني طغيان الناحية التأملية على اغلب دراساته وبحوثه . ومن تلك الدراسات : "شخصيات عرفتها " عام 1967م و " تجاربي" Experiences عام 1967م.

الاتجاه الثالث : وهو الاتجاه الأبرز في مؤلفاته وهو فلسفة التاريخ ، فقد ادى قلقه المحفّز على الحضارة الغربية نتيجة الكوارث والحروب التي شاركت بها بلاده وما قرأه عنها ان يحاول تقديم رؤية شاملة حول صعود الدول وانحلالها وهو يجد في الحضارات الميدان الطبيعي للدراسة وليس الدولة ولذلك حاول مراقبة نشوء الحضارات ونموها ومراقبة تدهورها وانحلالها واسباب ذلك ومحاولة إبعاد خطر الانحلال عن جسد الحضارة الغربية للوقاية منه ولعل ابرز مؤلفاته التي تدور حول هذه الموضوعات كتابه الشهير دراسة في التاريخ Study of history المؤلف من اثنا عشر مجلداً والذي بدأ في تأليفه منذ عام 1930وانتهى منه عام 1961م.

فضلاً عن انه لم يبخل بفكره وآرائه على الصحف البريطانية مما يجعلنا نعتقد بصورة جازمة انه لم يكن من طراز الكتاب الذين يجلسون في ابراجهم العاجية ويؤلفون الكتب والدراسات الأكاديمية فقط ، فقد كان يدرك أهمية الدور الذي تقوم به الصحافة في عالم اليوم فكان يتخير الصحيفة التي يجد فيها الفرصة لنشر افكاره وكانت صحيفة الاوبزرفر الاسبوعية Sunday Observer اكثر الصحف التي نشر فيها مقالاته طيلة عشرين عاماً ولم يكن ليكل او يمل حتى عندما تقدم به العمر فقد كان ياتي إلى دار الصحيفة بنفسه ويقدم لها ما كتبه وما سجله من ملاحظات ومقالات عن التاريخ القديم والتاريخ الحديث([20]) كل ذلك يعكس لنا الشغف الذي تمتع به توينبي وهو في اخر ايامه يحاول ان يبين ويكشف للحضارة الغربية نتيجة تجاربه وآرائه في الحياة والتاريخ والمصير.

قامت فلسفة توينبي للتاريخ على مجموعة من المبادئ والنظرات التي ضمّنها كتابه الاساس : دراسة في التاريخ ، ولعل ابرزها:

- التحدي والاستجابة: (Challenge and Response)، وملخصها ان نشوء أية حضارة في العالم انما كان نتيجة استجابة الانسان لتحدي غير معجز وليس سهلاً بل

وسطاً ذهبياً يستثير عند الانسان اقصى الطاقات ليصل إلى ميلاد الحضارة ، وهذا التحدي الذي يتفاعل معه الانسان يتخذ شكلين طبيعي وبشري([21]).

- التعاصر الحضاري:(Civilizational Contemporary)، وفيه يرى أن جميع الحضارات التي ظهرت في العالم يعاصر بعضها بعضاً خاصة اذا ما قورن بكشوف العلوم الطبيعية الغربية الحديثة وعمر المجموعة الشمسية فإن الستة الآف سنة الاخيرة من ظهور النوع الانساني تعد فترة قصيرة نسبياً، لذا فإن الحضارة الاغريقية التي ظهرت في الالف الثاني قبل الميلاد والحضارة المصرية القديمة التي ظهرت في الالف الرابع قبل الميلاد والحضارة الغربية التي ظهرت في الألف الأول الميلادي هي معاصرة لبعضها البعض من ناحية نشوء العقل الفلسفي النقدي([22]).
- الاعتكاف العودة: يعتقد توينبي ان أي عمل خلاّق يقوم به الانسان أو المجتمع يتصف بحركة مزدوجة من الاعتكاف Withdrawal والعودة Return، الاول يحقق الصفاء الذاتي ومحاولة استلهام الحق والثاني حركة فاعلة في التاريخ([23]).
- الاقلية المبدعة: أسند اليها وحدها الدور الاكبر في عملية الاستجابة للتحديات التي تواجهها حضارة ما ، ويرجح كثير من الباحثين أن نشأة هذا المفهوم كان بتاثير المؤرخ الانكليزي توماس كارليل Thomas Carlail الذي آمن بدور البطل في صناعة التاريخ وأن ما انجزه الانسان عبر التاريخ هو في اساسه تاريخ العظماء ، ويضيف توينبي على ذلك أنه عندما تعجز الاقلية المبدعة عن تقديم الحلول الصحيحة للمشكلات التي تواجه المجتمع يكون ذلك سبباً في سقوطها وانحلالها([24]).

ويبدو جلياً ان جوهر فلسفة توينبي للتاريخ البحث عن مصير الحضارة الغربية التي شهدت خلال اقل من نصف قرن حربين عالميتين كارثيتين على الحضارة الغربية لذلك سعى إلى بث الروح فيها بعد ان تنبأ لها الفيسلوف الالماني اسوالد شبنجلر Oswald Spengler (1880–1936م) بالافول([25]). وان كان توينبي يقدر آراء شبنجلر إلى انه يجد ان ثمة امل يمكن ان يعيد الحياة اليها ووجد في مبدأ "الانسانية" Humanity فرصة للتعاون لابقاء الحضارة الغربية على قيد الحياة فيأخذ من كل مجتمع وحضارة ما يناسب قيم الحضارة الغربية من اجل ديمومتها، وهذه أولى أفكار العولمة Globalization ، وهذا يتطابق مع رأي الباحث الامريكي هـ. أ. بارنس H.I. Barrens حين يقول:" إن تعاليم توينبي ليست نتيجة بحث علمي خالص وإنما تدخل فيها تعاليمه الدينية أيضاً"([26]) وتوينبي نفسه لا ينفي ذلك إذ يُقر ان عقيدته هي التي تتولى إرشاده وتوجيهه وان احياء الحضارة الغربية يتوقف في بعض الاحيان على إحياء الإيمان المسيحي([27]).

يعتقد توينبي ان هناك فئتين من المجتمعات: بدائية وحضارية. وقد أحصى من الفئة الاولى ستمائة وخمسين مجتمعاً بدائياً ومن الفئة الثانية حوالي ست وعشرون حضارة قسمها إلى حضارة اصلية ليس لها جذور او صلة بحضارة سابقة وحضارة فرعية لها جذر بما سبقها وهو يرى في الحضارة الغربية المعاصرة صلة بالحضارة اليونانية والرومانية ويعدها حضارة فرعية ترتبط بالحضارة اليونانية والرومانية برابطة البنوة اما الحضارة الاصلية فيعد الحضارة الاسلامية من الحضارات الاصلية التي لاترتبط بإي جذر وفي احسن الاحوال يعدها ممثلة او آخذة مكان الحضارة الفارسية القديمة في محاولة لقطع اي صلة تربط الاسلام ببيئته وكأنه شيء طارئ لا صله له او جذر، لذلك نلحظ تأكيده الدائم على مسألة عدّ الانتماء إلى الحضارة أمراً روحياً اكثر منه جغرافياً([28]). من جانب آخر يرى ان الحضارة الاسلامية تتألف من اتحاد المجتمعين العربي والإيراني وهما يرجعان بالبنوة إلى الحضارة السريانية القديمة([29]). وهذا يتناقض مع ماذكره في البداية من التاكيد على عد الحضارة الاسلامية حضارة اصيلة .

ويصل في نهاية فلسفته للتاريخ إلى تقرير حقيقة لا يمكنه تجاهلها وهي أن مصير الحضارات سيكون بقاء حضارة واحدة هي الحضارة الغربية التي يحاول ان يجد العلاج لابقائها على قيد الحياة من خلال الديانات الاربعة الرئيسة في العالم وهي : النصرانية والاسلام والبوذية والهندوسية([30]) وقد سعى توينبي إلى توظيف قيم ومبادئ هذه الديانات بما يخدم قيم ومبادئ الحضارة الغربية ويتعامل معها على اساس مدى انسجامها ومواءمتها مع قيم ومبادئ الحضارة الغربية . ليصل إلى نتيجة مفادها ان مستقبل العالم ومصيره مرتبط باحدى نتيجتين: الاولى حرب ذرية ماحقة وذلك نتيجة تأثره بالحروب الكارثية التي عاصرها والحرب الباردة التي كانت قد بلغت اوج قوتها او حضارية عالمية واحدة تنهض بها الديانات الاربعة المتبقية([31])، وطبعا كما قرر مسبقاً يأخذ من كل دين من هذه الاديان ما ينسجم وقيم الحضارة الغربية التي يجد في دينها "النصرانية" كل المثل العليا فتنشأ "الحضارة الجامعة" Universal Civilization وهي في الحقيقة تقليد للحضارة الغربية ودعوة إلى اتباع نهجٍ يتضح فيه غرضه الترويج للقيم الغربية في العالم تحت دعاوي التسامح ونبالة الروح، وهكذا نلحظ في فلسفة توينبي للتاريخ تكرارها لفكرتين اساسيتين هما ابراز اهمية تعاليمه الدينية النصرانية والامر الثاني مدحه المتكرر للفكر اليوناني الذي تنتمي الحضارة الغربية اليه برابطة البنوة مما يفسح المجال للاعتقاد بتركيزه على الترويج لخصوصية الحضارة الغربية وجعلها معيار التقدم والرقي في العالم، من أجل ذلك نلاحظ أن توينبي يدعو النصارى إلى " التبشير بدينهم" على قاعدة التسامح الحقيقي وليس على اساس التعالي الاوربي([32]).

المبحث الثاني

آراء توينبي في خدمة المؤسسة الاستعمارية البريطانية

لاحظنا في الصفحات السابقة كيف وظّف توينبي نفسه وفلسفته للتاريخ في خدمة سياسة بلاده والحضارة التي ينتمي اليها وكانت آرائه تصب في مصلحة البحث عن علاج ناجح ينقذ بها حضارته من الافول والزوال منطلقاً في ذلك من موقعه كموظف كبير في الخارجية البريطانية وباحث متعمق في الشؤون الدولية يحاول رسم معالم حضارة عالمية جديدة تكون فيها الحضارة الغربية زعيمة له وبريطانيا سيدةً فيه، وسيحاول ما تبقى من هذا البحث رصد بعض الآراء والمواقف التي يطرحها توينبي اثناء تحليلاته لقضايا معاصرة والاثر الفكري الذي يطرحه في خدمة المؤسسة الاستعمارية البريطانية خصوصاً مسألتي الغرب والعالم الاسلامي لذلك سوف يتركز هذا المبحث على تناول موقف توينبي من المؤسسة الاستعمارية البريطانية من زاويتين : موقفه من الحضارة الغربية وموقفه من العالم الاسلامي.

أولا/ موقفه من الحضارة الغربية:

عندما بدأ ارنولد توينبي حياته العلمية المنظّمة عام 1908م بدخوله كلية باليول وهي من ابرز كليات جامعة اكسفورد كانت الدراسات التاريخية تمر في ذلك الوقت بمرحلة من الازدهار والتطور بفضل مؤرخين بريطانيين لعبوا دوراً مهماً في تنشيط الدراسات التاريخية في بريطانيا وتوجيهها. ومع ان جامعة اكسفورد كان فيها واحدة من المراكز القليلة لدراسة التاريخ الاسلامي في بريطانيا؛ الا ان الاهتمام الاكبر في أكسفورد انصب آنذاك على دراسة الحضارة الاغريقية القديمة وتقدير مُثُلها العليا في الديمقراطيةDemocracy ضد النزعة الفرديةIndivisualism. وكانت كلية باليول وقتها تعد من اكبر مراكز الدراسات والبحوث المتعلقة بالحضارة الاغريقية ، ونتيجة لهذا الجو فقد تاثر توينبي كثيراً وكرّس وقتاً طويلاً لسبر اغوار هذه الحضارة وكان من نتائج اهتمامه بالدراسات الكلاسيكية انه اختير لكتابة فصل من كتاب حمل عنوان: تراث اليونان وذلك في آواخر العشرينات كما اصدر دراسات مهمة ورصينة حول الموضوعات نفسها أبرزها: الحضارة الهلنستية" و "التفكير التاريخي عند الاغريق"([33]).

افرد ارنولد توينبي مكانة بارزة للحضارة الاغريقية وتأثر كثيراً بالفكر الهيليني إلى درجة انه وجد فيها أصلاً للحضارة الغربية الحديثة وانها اثّرت على العالم القديم بشكل عام كما تؤثر الحضارة الغربية على العالم اليوم وبالتالي يؤمن بإن الحضارة الاغريقية القديمة هي السلف الحقيقي للحضارة الاوربية الحديثة ليجد فيها تجسيداً لفلسفته حول عدم موت الحضارة وانما اختفائها لفترة ثم تعود للظهور من جديد ([34]).

لقد عاش توينبي حياته العلمية في وقت كانت الدراسات التاريخية في اوربا تسودها بعض الافكار المتعلقة بإيمان الاوربيين بعظمة الحضارة الاوربية وكونها المحور المركزي لحركة التاريخ

فضلاً عن انتشار الفكرة القومية – الرومانتيكية التي وصلت عند البعض إلى حد العنصرية وما يتعلق بها من مسألة التفوق الاوربي على القوميات الاخرى وتبرير استعمارها للعالم([35]).

ولاشك ان توينبي تأثر بذلك ولكن لم يصل إلى حد المبالغة في العنصرية الاوربية فهو اكتشف ان بلاده نفسها كانت اثناء الحربين العالميتين في مواجهة مع زعيمة العنصرية الاوربية الممثل في ذلك الوقت بالمانيا النازية لذلك لا يألُ جهداً في نقد الفكر العنصري النازي([36])، وضمن هذا التوجه يمكن ان نفسّر آراء توينبي تجاه اليهود بوصفهم عنصريين يحذون حذو النازيين في مواقفهم الاستعلائية تجاه شعوب ودول العالم لذلك يصور توينبي اليهودية بانها طبعة ثانية من الدول الغربية العنصرية الحديثة ([37]). أما موقفه من قيم الحضارة الغربية في الديمقراطية والفردية فنراه مدافعاً عنها بل ومبشراً بها ومبرراً لاساليبها فهو يبرر سيطرة الولايات المتحدة على دول امريكا اللاتينية ويعد تدخلها بمثابة الخدمة الجليلة لانها على حد زعمه تحاول حمايتها من العدو السوفياتي([38])، كذلك كانت عواطفه كلها عام 1912م مع شعوب اليونان وبلغاريا والصرب والجبل الاسود في حروبها ضد الدولة العثمانية للتخلص من حكمها، لانه أدرك أن فكرة القومية تفكك مفهوم الامة الاسلامية التي كانت تقودها الدولة العثمانية([39]).

وفي معرض دفاعه عن قيم الحياة الغربية الليبرالية ينتقد توينبي بشدة الاتجاهات القومية التي ظهرت في اوربا خصوصاً خلال مدة ما بين الحربين، ويجد الانظمة السياسية التي تبنت النهج القومي انظمة طغيانية ليست جديرة بالحضارة الغربية لذلك نلحظ دعوته إلى العالم الاسلامي بضرورة التخلي عن الافكار القومية التي ازدهرت في خمسينيات القرن العشرين ويدعو إلى نبذها في سبيل تبني الانظمة والافكار الليبرالية([40])، وضمن هذا الاطار يمكن فهم منظور توينبي الفلسفي للتاريخ حيث يمكن وضعه ضمن اطار المدرسة الانكليزية المحافظة التي تنحو منحاً مثالياً مسرفاً وتقيم وزناً كبيراً للفرد البطل([41]).

ويبدو ان الفكر القومي، الذي كان مزدهراً في العالم العربي الاسلامي في ذلك الوقت، كان يمتلك افكاراً تحررية خصوصاً دعوته إلى الاستقلال والكفاح المسلح لطرد الاستعمار وطبيعي ان لايجد توينبي في ذلك الفكر مجالاً لتاييده طالما انه يتعارض مع توجهات المؤسسة الاستعمارية البريطانية.

من جهة اخرى كالَ توينبي المديح والثناء إلى حضارته ليس على صعيد المنجز العلمي والتقني فحسب؛ بل على المستوى الاخلاقي وهذا اخطر ما طرحه توينبي في معرض تبريره للجرائم التي ارتكبها الاستعمار الاوربي بحق الشعوب الرازحة تحت حكمهم حيث يشيد بالنزعة العملية (البراغماتية)([42]) في الغرب ويعدها من مزاياهم ويدعو إلى ان يحذو العالم حذو الغرب في هذه النزعة فيطلب من العالم ان يكونوا عمليين مثل الغرب، وان ينبذوا التعصب الذي يجده

في الاديان والافكار الشيوعية والقومية ويدعو إلى اتباع اسلوب المهاتما غاندي([43]) في اللاعنف عند التعامل مع المؤسسة الاستعمارية الغربية([44]).

ثانياً/ موقفه من العالم الإسلامي:

ترجع معرفة ارنولد توينبي بالعالم الاسلامي منذ وقت مبكر عندما زار اليونان وإهتم بدراسة تاريخ الدولة العثمانية وزاد اتصاله بها في اثناء مشاركته في اعداد مؤتمر فرساي في فرنسا عام 1919م بوصفه أحد الخبراء الفنيين ، وقد اهتم بتكوينهم الحضاري وكان من ثمارها دراسة بعنوان: المسالة الغربية في اليونان وتركيا The western issue in The Greek and Turkey تعرض فيها إلى احوال الشرق الاوسط والبلاد العربية ونشرها في الجزء الاول من سلسلة دراسات عن الشؤون الدولية([45]). ومن ذلك التاريخ اخذت مواقف توينبي من القضايا العربية تتبلور تباعاً مترافقة مع التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان تمر بها المنطقة ، وكما ذكرنا سلفاً فاننا لن نتوقف كثيراً عند ايجابيات موقفه من بعض القضايا العربية والاسلامية ولكننا سنرصد تلك المواقف التي نجد لها ثمة صلة بالمؤسسة الاستعمارية ودعم لتوجهاتها .

لقد كان يدرك اهمية الحضارة العربية الاسلامية ودورها في مسيرة التاريخ لذلك افرد لها فصولاً طويلة شارحاً مكانتها ومحللاً ومناقشاً اهميتها ، ولعل ذلك نابع من الصلة الوثيقة التي تربط هذه الحضارة مع الغرب رغم انه خصص لدراسته (اعني كتاب دراسة في التاريخ) فصولاً لبقية الحضارات الا انه خصص اجزاء مهمة لشرح الحضارة العربية الإسلامية فقد خصص الاجزاء السابع والثامن والتاسع والثاني عشر للحديث عن الحضارة العربية الإسلامية ([46]) ولعل هذا الاهتمام لا يمكن أن يأتي من فراغ لولا الاهمية والمكانة التي يتمتع بها العالم الاسلامي في العصر الذي كتب فيه توينبي هذا الكتاب.

إن ابرز مسالتين ينبغي ملاحظتهما في موقف توينبي من قضايا العالم الاسلامي هي مسالة التغريب Westernization ووحدة العالم الاسلامي اللتان سنبين كيف تصبان في مصلحة المؤسسة الاستعمارية البريطانية على الرغم من انه لا يؤيد كثيراً من مواقف هذه المؤسسة.

-مسألة التغريب

يعتقد توينبي أن الحضارات الباقية على قيد الحياة هي عشرة حضارات اثنان في دور النزاع الاخير وسبعاً تتهدها الحضارة الغربية بخطر الابادة والامتصاص وان ستاً من هذه الحضارات قد شرعت تسقط وتنحدر نحو الزوال ولم يبقَ سوى الحضارتين الاسلامية والغربية، لذلك ، يعتقد ان الحضارة الباقية التي تشكل تحدي للحضارة الغربية هي الاسلام([47]).

ويرجع إلى التاريخ لتأصيل طبيعة العلاقة التي ربطت الحضارة الغربية بالاسلام ويزعم ان الاعتداءات الاسلامية على اوربا الهبت الطاقات المتفجرة في نصرانية الغرب الكاثوليكية وعبّرت عن نفسها بالحروب الصليبية([48])، اذا فطبيعة العلاقة التي حاول ان يرسمها توينبي بين الحضارة الغربية والاسلام تقوم بالاساس على فكرة الصراع وان كلتا الحضارتين عاشتا في تنافس وصراع طيلة حقب التاريخ المختلفة وان العالم الحديث يشهد استمراراً لهذا الصراع الذي يبدو فيه الغرب هو المتفوق والدليل على ذلك قيام الحضارة الاسلامية باستخدام ادوات غربية والدخول في عملية تغريب لتطوير حياتها وفقاً للنموذج الغربي ولذلك سنلحظ دعوات متكررة ومواقف واضحة منه تحاول الترويج لكل ما هو تغريبي في البلاد الاسلامية وسيقدم نماذج وقصص تصب في هذا الاتجاه بوصفها افضل نماذج قدمها العالم الاسلامي الحديث في مواجهة للغرب، لذلك يمكن ان نعده من ابرز الداعين إلى الفكر التغريبي والاخذ بمعطيات الحضارة الغربية وقيمها وعندئذ يتأكد ما ذهبنا اليه من كونه يخدم المؤسسة الاستعمارية عبر الترويج إلى افكارها وتوجهاتها.

ففي إحدى محاضراته التي القيت في القاهرة يؤكد على ان تقدم الامم الحديث انما يرجع بفضل اقتباسها للتقنية الغربية ويضرب مثالاً على ذلك في روسيا التي اعتنقت الفكر الشيوعي قبل ان تعتنق التقنية الغربية ومكنتها هذه العقيدة الغربية من نقلها من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم وبذلك يحاول ان ينسب الفضل في تقدم الاتحاد السوفيتي إلى اقتباسها الفكر الغربي واقتباسها التقنيات الغربية ، وليس غريباً ان يقدم توينبي هذا المثال في مثل ذلك الوقت في اربعينيات وخمسينات وستينات القرن العشرين حيث كانت روسيا السوفيتية في اوج قوتها خاصة وان بعض الاقطار العربية ومن ضمنها مصر التي كان يلقى فيها محاضرته كانت على علاقة مهمة مع الاتحاد السوفيتي لذلك حاول ان يوضح بان أي تقدم في العالم انما مرجعه الاقتباس من الحضارة الغربية لذلك يدعو وان كان بشكل مبطن الاخذ بالقيم الغربية بدلاً من القيم السوفياتية. وفي المحاضرة نفسها يرى الامر نفسه في البلاد الاسلامية ابان عهد الدولة العثمانية التي يرى انها انهارت بسبب اقتباسها لمعطيات الحضارة الغربية بصورة ناقصة لانه باعتقاده يرى ان الاقتباس يجب ان يكون كلياً وشاملاً وليس جزئياً ، فالدولة العثمانية اقتبست التقنية العسكرية فقط ولم تقتبس روح وفكر الحياة الغربية فكان ذلك سبب فشلها وتبعاً لذلك يدعو توينبي إلى ان المقتبس من الحياة الغربية يجب ان يقتبس فكرها وروحها إلى جانب تقنيتها ليتمكن من النهوض والا فان محاولته ستكون فاشلة وبائسة ([49]). إن توينبي لم يجد في محاولة الدولة العثمانية ادخال الاساليب الغربية على جهازها العسكري حلاً ناجعاً ، بل وجده محاولة فاشلة وان الدولة العثمانية بوصفها زعيمة العالم الاسلامي انذاك واجهت طريقين لا ثالث لهما : إما ان يدفعوا ثمن غلطتهم في اخذ الحد الادنى من جرعات الحضارة الغربية فينتهون إلى الخضوع والتبعية واما ان ينقذوا انفسهم من الفناء بعملية تغريب شاملة يندفعون نحوها بقلوبهم وعقولهم وانفسهم

وكل طاقاتهم قبل فوات الاوان([50])، مما يوضح البعد الاستعماري الواضح الذي جسده هذا الرأي، عبر الترويج للقيم الغربية والدعوة إلى اعتناق الافكار قبل التقنيات.

فارنولد توينبي لم يكتف بدعوته إلى تغريب الحضارة الاسلامية من الناحية الشكلية والتقنية بل دعا إلى تمثّل كامل للفكر والمثل الغربية لذا لا نستغرب كثيراً عندما يصب جام غضبه على حكم السلطان عبد الحميد الثاني (1876–1909م) حينما يصفه بالشخص الرجعي المتطرف ، لان السلطان عبدالحميد الثاني رفض بيع فلسطين لليهود مقابل خمسَ ملايين ليرة ذهبية بضغط من الجمعية الماسونية، في حين يصف سلفه السلطان سليم الثالث(1789–1807م) بسيّئ الحظ بسبب الجرعة الصغيرة التي أخذها عن الغرب في الوقت المتأخر وهو السبب الذي برايه فشلت محاولته الاصلاحية بسبب الجرعة الصغيرة التي اتبعها ولكنه يشيد بتجربة مصطفى كمال أتاتورك(1923–1938م) ويصفه بالنباهة وقوة الشخصية وكل ذلك بسبب قيامه بعملية تغريب شاملة للحياة في تركيا وتحويلها كلياً إلى نمط الحياة الغربية([51]). ووصل الامر بتوينبي إلى تبرير تدابير وسياسات اتاتورك في فرض التغريب على المجتمع التركي ويرى ان التحول في تركيا لم يكن مقدراً له ان ينجز لوكانت الطريقة التي نفذها اتاتورك بحق المجتمع التركي اقل دكتاتورية.([52]) فتصبح عملية التغريب الكامل للمجتمع الاسلامي عند توينبي هي الحياة وما عداها التأخر والانحطاط.

كما ان عملية التغريب على النمط التوينبي لايعني تمثل معطيات الحضارة الغربية ذات التوجهات غير الليبرالية والراسمالية كالشيوعية والقومية بل يقصد ان يتمثل العالم الاسلامي قيم الحضارة الغربية على الطراز الليبرالي البريطاني، لذلك نلحظ انه يقرر في مقدمة كتابه عن القارة الافريقية ، التي كانت تشهد في ستينيات القرن العشرين تطورات سريعة، أن اعمق ما تحتاج اليه افريقيا والعالم معها هو تغيير جذري في المفاهيم. فالنزعة الفردية عند توينبي هي شيء طيب لأنه يعتقد ان كل بادرة ابداع بشري انما كان نتيجة لمجهود فردي وان كل جهد خلاّق يمكن ان يرد إلى الفردية التي هي :" رأس المال الوحيد الذي يملكه الانسان"([53]).

-الوحدة الاسلامية:

لكونه معاصراً لأحداث مهمة من تاريخ العالم الحديث فهو يقدم رؤية بصورة تمزج بين شخصيته كمراقب للاحداث وفلسفته التي يرى فيها أن العالم في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى تنقسم إلى خطين الاول تصاعدي إذا تأملناه من وجهة نظر الشعوب النامية التي كانت مستعمرة في بداية هذه المدة ثم نالت استقلالها في نهايتها وتنازلي من وجهة نظر السيطرة الغربية على العالم. لذلك فهو يقدم رؤيتين لقضية الوحدة الاسلامية، التي حظيت ولاتزال تحظى باهتمام العالمين العربي والاسلامي منذ سقوط الخلافة العثمانية عام 1924م وتجزء الدولة

العثمانية إلى دويلات صغيرة متناثرة ومفككة، ويضعهما في خدمة المؤسسة الاستعمارية البريطانية . الرؤية الاولى يمكن ان نصفها بالايجابية وفيها يحاول ان يبرز بعض السمات التي يتميز بها الاسلام وامكانية ان تستفيد المؤسسة الاستعمارية البريطانية منها خصوصاً في المستعمرات التي يعتنق سكانها الدين الاسلامي ورؤية سلبية تكمن في التحريض على "الخطر " الذي يشكله الاسلام للحضارة الغربية بعد ان حرّك الغرب كوامن القوة في المجتمع الاسلامي وبالتالي ينبغي مواجهة هذا التحدي وكسبه.

ففي البداية يقسّم توينبي القوى الفاعلة في المجتمع الاسلامي إلى قسمين يسميهم هو (مقلدين ومتحمسين)([54]) وهو بذلك يحاول ان ينقل معركة التغريب في المجتمعات الاسلامية من تاثير الغرب والمؤسسة الاستعمارية إلى الاسلام نفسه على أساس ان لا علاقة للغرب بالموضوع انما هم من يريدون ادخال القيم الغربية في مجتمعهم. فالمقلدون هم المتكيفون مع القيم الغربية ويسعون إلى تقليده لذلك يحث توينبي المراقب الغربي مراعاة اللياقة مع المقلد فلا يسخر منه لانه يحاول تغيير وطنه ومواطنيه إلى حالة يقول توينبي كنا نحن الغربيين نسعى إلى اقامتها لهم أي ان نجعل منهم صورة لدولة غربية وشعب غربي وكل هذا بفضل ماقمنا به وما احدثناه من ردود فعل بين المقلدين والمتحمسين([55]).

أما المتحمسون فهم على العكس من ذلك يتهمهم توينبي بالتعصب والتهرب من الشيء وقلة التفكير وأن كل همّهم الحفاظ على الشريعة الاسلامية وتطبيقها في كل نواحي الحياة ، ثم يتهم المسلمين بأنهم كالنعامة التي تحاول وأد رأسها في التراب لتختبئ من ملاحقيها، ويرى ان الغرب استطاع ان يحرّض المقلدين من أبناء الحضارة الإسلامية على القيام بردود افعال تجاه المتحمسين دفعتهم إلى التصادم مع بعض عدة مرات في التاريخ الحديث من ذلك استعمال محمد علي باشا(1805–1849م) جيشه المتغرّب لاول مرة ضد ابناء الحركة السلفية (الوهابية) في الجزيرة العربية لاخماد حماسهم([56]).

تعكس طبيعة صلة ارنولد توينبي بالمؤسسة الاستعمارية البريطانية من خلال ما يقدمه من آراء وافكار تصب في مصلحة هذا التوجه وضمن سياق رؤيته لأثر المؤسسة الاستعمارية في تقسيم المجتمع الاسلامي إلى مقلدين ومتحمسين وفقاً لمنظور توينبي، القائم على مبدأ التحدي والاستجابة، فانه يرى ان حالة الصراع التي نشأت بين المقلدين والمتحمسين تصل إلى اقسى درجات الصراع حيث يواجه المتحمسون عناءً شديداً ويعاملهم المقلدون معاملة قاسية يقول توينبي انه حتى الغربيين لا يتجاسرون على القيام بها ، فالاسلوب المرعب في تعامل المقلدين يتجاوز بكثير اسلوب اسيادهم الغربيين ومن امثلة ذلك التعامل يورد توينبي الاسلوب الذي اتبعه مصطفى كمال اتاتورك في قمعه للثورة الكردية عام 1925م والاسلوب البريطاني "الاكثر انسانية" – على حد زعمه– في اثناء تعامله مع المعارضين الاكراد في شمال العراق([57]). يحاول توينبي

ان يظهر سماحة المؤسسة الاستعمارية الغربية امام قساوة المقلدين في تعاملهم مع أبناء المجتمع الاسلامي ليبين ان الاستعمار الغربي يقدم نماذج حضارية افضل بكثير من النماذج التي يفرزها المجتمع ناسياً في الوقت نفسه ان نماذج المقلدين ارتبطت في احيان كثيرة بعلاقات وثيقة مع المؤسسة الاستعمارية وأسهمت في تنفيذ مشاريعها وخططها في المنطقة.

اما بخصوص الجانب الايجابي الذي يعتقد توينبي انه يمكن للمؤسسة الاستعمارية البريطانية الافادة منه لخدمه سياستها في مناطق نفوذها خصوصاً في المناطق ذات الاكثرية الاسلامية حيث يجد ان بعض مبادئ الاسلام تتميز بنتائج حسنة ومفيدة للمستقبل منها الغاء الاسلام لمسالة التمييز العنصري إذ يرى ان الاسلام عندما جاء الغى مسالة التمييز العنصري وساوى بين الناس فيجد في ذلك فضيلة مهمة يفتقدها حكّام المستعمرات البريطانيين الذين يعزلون انفسهم عن ابناء البلاد الاصليين بسبب تمييزهم العنصري لذلك يحاول ان يجعل من مسالة تسامح الاسلام وموقفه من مسألة التمييز العنصري مدخلاً لخدمة المؤسسة الاستعمارية البريطانية([58]).

وفيما يخص الجانب السلبي الذي يرى فيه خطراً ليس على المؤسسة الاستعمارية الغربية فقط بل على الحضارة الغربية ككل فيجد توينبي في الاسلام امكانيات مدمرة تكمن في توجهاته الوحدوية (Pan- Islamism) التي تمثل مصدر رعب للمؤسسة الاستعمارية الغربية منذ ان رفع لواءها السلطان العثماني عبد الحميد الثاني(1876–1909م) وبالتالي يخشى توينبي ان تفقد المؤسسة الاستعمارية البريطانية سيطرتها على عقول المسلمين وبالذات المقلدين ولكنه يرى ان تحقيقها بات صعباً بسبب التجزئة وبسبب ما قام به الاتراك من تصميم على رفض واستنكار مشروع الجامعة الاسلامية والغاء الخلافة في عام 1924م، والتى عدّت واحدة من اهم رموز الجامعة الاسلامية– التي لم تنفع مؤتمر الخلافة المعقود عام 1926م([59]) لبحث امكانية احيائها – من ان تعيد الحياة اليها، ليقتنع بموت مشروع الوحدة الاسلامية وسباته العميق ، ولكن توينبي يستدرك بإن هذه الوحدة نائمة لذلك يجب ان تضع المؤسسة الاستعمارية البريطانية في حساباتها ان النائم قد يستيقظ وان الاسلام قد يوقض الروح الجهادية لدى المسلمين ليحرروا مناطقهم ويعيدوا مكانتهم في التاريخ مجدداً كما فعلها نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الايوبي والمماليك([60]) في طردهم للصليبيين والمغول، لذلك يرى توينبي ان الوضع الدولي الحالي يسمح للاسلام ان يتحرك ليلعب هذا الدور مرة اخرى([61]).

الخاتمة

تبين من خلال البحث أهمية المؤرخ ارنولد توينبي ودوره في خدمة المؤسسة الاستعمارية البريطانية عبر الترويج للقيم والافكار الغربية الأوربية على الرغم من التباين الظاهر في مواقفه

من بعض سياساتها تجاه شعوب العالم الثالث بشكل عام والعالم الاسلامي بشكل خاص. وقد لاحظ البحث كيف أثّرت هذه الصلة على نتائج الابحاث والدراسات التي قدمها توينبي لاسيما فيما يخص المجتمع الاسلامي وخصوصاً قضيتي التغريب ووحدة العالم الاسلامي.

وجد توينبي أن التحدي الاخطر الذي قد تواجهه الحضارة الغربية يكمن في الاسلام لذا ركّز جهده في العمل على إقناع العالم الاسلامي بتبني فكرة التحديث على وفق النمط الغربي بوصفه الخطوة نحو تبني قيم الحضارة الغربية ، ولما وجد ان الخطر الذي يشكله العالم الاسلامي يكمن في احتمالية ان تنشأ في المستقبل وحدة له، حذّر الغرب من ذلك ونبه الى ضرورة دعم القوى المتغوربة – من الغرب– في هذا العالم لمساعدتها في القضاء على هذا المشروع.

ويعتقد توينبي اخيراً ان مشروع وحدة العالم الاسلامي يراه نائماً في الوقت الحاضر لكنه يعتقد ان هذا النائم لابد ان يأتي اليوم الذي سيستيقظ فيه من غفوته وعندما يستيقظ سوف يوقظ الروح الجهادية لدى اتباعه ليحرروا بلادهم ويعيدوا مكانتهم في التاريخ مجدداً كما فعلها قادتهم في السابق.

الهوامش

([1]) يكتب توينبي عن الطبقة الوسطى في بريطانيا في ذلك الوقت بوصفها الطبقة المسيطرة على أوربا ، فالغرب مسيطر على العالم كله ، وأوربا مسيطرة على الغرب ، والطبقة الوسطى مسيطرة على أوربا. أرنولد توينبي: استعراض لتاريخ العالم في نصف القرن الأخير، محاضرات أرنولد توينبي، نص المحاضرات التي القاها خلال زيارته للجمهورية العربية المتحدة في ابريل 1964، ترجمة وتقديم فؤاد زكريا (المحاضرة الأولى) ص20.

([2]) تجدر الإشارة إلى أن والدته تولت رعايته بعدما لم تتحمل العائلة تكاليف المربية ، فكانت والدته تسكب في نفس توينبي حب التاريخ وهو في سن لا يتجاوز الخمس سنوات فيروي توينبي عنها فيقول:" .. كانت تحكي لي أثناء الليل تاريخ انكلترا على حلقات كل ليلة حلقة جديدة.. لقد أحببت التاريخ الذي أرضعته لي أمي.. كانت هي وحدها التي الهمتني ". منير نصيف:" أرنولد توينبي ، الإنسان الفيلسوف ، مؤرخ عملاق .. علّم أجيالا وقضى حياته كلها يتعلم!" مجلة العربي، الكويت، العدد(208)، السنة 1976، ص134. صدقي خطاب :" أرنولد توينبي" مجلة عالم الفكر، القاهرة، المجلد الخامس ، 1974، ص292.

([3]) International Encyclopedia of the Social Sciences, vol.15, p.114.

([4]) فرقة من النصرانية احتجت على الكنيسة الكاثوليكية الغربية بإسم الإنجيل والعقل، وتسمى كنيستهم بالبروتستانتية، إذ يعترضون (Protest) على كل أمر يخالف الكتاب المقدّس وخلاص أنفسهم وتسمى بالإنجيلية أيضاً إذ يتبعون الإنجيل دون سواه ويعتقدون أنّ لكل فرد الحق في فهمه، فالكل متساوون ومسئولون أمامه، وبدأت في القرن السادس عشر متأثرة بدعوات الإصلاح السابقة عليها ومن أبرز مؤسسيها مارتن لوثر(1483–1546م) وهودريخ زوينجلي (1484–1531م) وجون كالفن (1509–1564م). للتفاصيل ينظر: الموسوعة

الميسرة: المصدر السابق، مجلد2، ص615–631؛ سليمان ظاهر: قصة الديانات (بيروت–القاهرة، 1984) ص417–426.

([5]) جواد علي:"افكار وذكريات" جريدة الجمهورية ملحق بمناسبة مهرجان تكريم توينبي" لسنة 1977، بغداد، ص6. وقد مدحه المؤرخ العراقي جواد علي ووصفه بالتواضع فقد كان يتردد اليه كثيراً ويزوره في بيته فكان يقول".. انطباعي العام عنه انه كان متواضع جداً ، وكنت حين ازوره ياتيني بالشاي وغيره بنفسه ولا يترك هذا الامر إلى خادمته ؛ لقد كان متواضعاً إلى ابعد الحدود .." للتفاصيل ينظر ، المصدر نفسه، ص6.

([6]) لعل ابرز من تناول افكار ارنولد توينبي بالتحليل والدراسة الباحث ادوارد كاركان EDWARD T. GARGAN الذي حرر سلسلة دراسات جمع فيها أبرز من نقد توينبي عام 1961م بعنوان (مقاصد تاريخ توينبي) The Intents of Toynbee's history(Chicago, 1961) . أما عربياً فقد رعى اتحاد المؤرخين العرب بالتعاون مع وزارة الثقافة والاعلام العراقية عام 1979م في بغداد مهرجان لتكريم ارنولد توينبي شارك فيها نخبة من مؤرخي العرب والعالم.

([7]) أرنولد توينبي: بحث في التاريخ ، ترجمة طه باقر (وزارة المعارف ، بغداد، 1955) ج2، ص337، لمعي المطيعي: ارنولد توينبي عرض ودراسة (دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967) ص127.

([8]) صالح احمد العلي:"توينبي والحضارة لعربية في ماضيها ومستقبلها " مجلة آفاق عربية، بغداد، العدد(7) آذار، 1976، ص12.

([9]) المطيعي: المصدر السابق، ص127.

(10)محاضرات ارنولد توينبي،(المحاضرة الاولى)، المصدر السابق، ص19–20.

([11]) عقد مؤتمر الصلح في فرساي في فرنسا لمناقشة نتائج الحرب العالمية الاولى التي جرت بين الحلفاء(فرنسا وبريطانيا وروسيا والولايات المتحدة) وبين دول الوسط (الامبراطوريتين الالمانية والنمساوية والدولة العثمانية وبلغاريا) وانتهت بانتصار الحلفاء وقد ناقش المؤتمر قضية العقوبات والتعويضات على دول الوسط ومسألة انشاء منظمة دولية للنظر في شؤون السلم والامن الدوليين. للتفاصيل ينظر: آلان بالمر، موسوعة التاريخ الحديث 1789–1945، ترجمة سوسن فيصل السامر ويوسف محمد أمين ، ج2(بغداد، 1992) ص368–369.

([12]) R. Soffer:"Arnold Toynbee" The Encyclopedia of world Biography(The Magraw-Hill, N.D)Vol.10, p.469.

([13]) Soffer: Op.Cit, Vol.10, p.496.

([14]) يقول توينبي عن دوره في مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس بانه كان يجلس في الصفوف الخلفية ويتصفح الاوراق التي قد تنفع المندوبين البريطانيين ويقول ان فرصته للمراقبة كانت جيدة خصوصاً وانه كان مراقباً جيداً للممثل السوفيتي (الاتحاد السوفيتي سابقاً) باعتباره اكثر خصوم بريطانيا قوة.

Toynbee: Experiences(London-1969)p.52.

([15]) هاشم يحيى الملاح وآخرون: دراسات في فلسفة التاريخ (جامعة الموصل–1989) ص211؛ محاضرات ارنولد توينبي: مقدمة المترجم، ص4.

([16]) ماجد صالح:" ارنولد توينبي لوحة حياة" ملحق جريدة الجمهورية، السنة 1977، ص2.

([17]) صراع تمتنع خلاله الأطراف المتنازعة عن اللجوء الى السلاح الواحدة ضد الأخرى، استخدم عام 1947م من قبل الاقتصادي الأميركي برنارد باروش B. Baruch، ويفهم منه بصورة عامة حالة التوتر بين الدول

الغربية والكتلة الشرقية، التي حدثت بعد عام 1945م، ومن وسائلها لجوء الخصوم إلى تضخيم مساوئ بعضهم البعض باستخدام وسائل الدعاية والتخريب وخلق مشاكل محلية أو إقليمية مع التحسب بعدم التورط في عمليات حربية مباشرة . للتفاصيل: عبد الوهاب الكيالي(محرر)، موسوعة السياسة، ج2، (بيروت، 2001) ص185-187.

([18]) ترجم الكتاب إلى العربي عام 1961م عن ادارة الثقافة العامة – ضمن مشروع الألف كتاب وترجمه الاستاذ لمعي المطيعي . ينظر : لمعي المطيعي : ارنولد توينبي ، عرض ودراسة (القاهرة، دار الكاتب العربي ، 1967) ص5-6.

([19]) ارنولد توينبي: الحضارة في الميزان ، ترجمة امين محمود الشريف (الادارة العامة للثقافة ، القاهرة، د.ت) ص13-15.

, Cit, p.496.) Soffer: Op[20](

تجدر الاشارة ان صحيفة الاوبزرفر عندما نعت وفاة المؤرخ ارنولد توينبي اشارت إلى تحذير كان قد قدّمه توينبي إلى القراء ، وكان ذلك قبل حرب أكتوبر عام 1973م ، يبين فيه ان ميزان القوى في منطقة الشرق الاوسط سوف يميل لصالح دول الشرق الاوسط والدول الاسيوية ، ولم تكد تنقضي عدة اشهر على نشر هذه المقالة حتى بدا العالم يشعر بما توقعه. نصيف: المصدر السابق ، ص136.

([21]) ارنولد توينبي: مختصر ، ج4، ص9.

([22]) توينبي: الحضارة في الميزان، ص16.

([23]) يضرب توينبي مثالاً على هذه النظرية باستلهام تاريخ بلاده فيقول:" ان بريطانيا كانت تعاني من عزلة عن اوربا خلال المدة ما بين القرن الخامس عشر والثامن عشر استطاعت خلال المدة ان ترسي دعائم الديمقراطية البرلمانية والمجتمع الصناعي الحديث". منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي(بيروت، 1960) ص36؛ الملاح وآخرون: المصدر السابق، ص217؛ المطيعي: المصدر السابق، ص12-13.

([24]) Huseyin Yurdaydin:" Prof. Dr. A.J. Toynbee: Turkey and Turkish Historians" This research taken of researches group published by the Union of Arab Historians (Baghdad – 1979) p. 29-30.

خوري: المصدر السابق، ص35؛ محمود اسماعيل: " البطل التاريخي بين كارلايل وتوينبي " بحث مستل من بحوث مهرجان المؤرخ توينبي (منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1979) ص28-29.

([25]) خوري: المصدر السابق، ص5؛ عبد الرحمن بدوي: أشبنجلر (بيروت-الكويت، 1982) ص9-16.

([26]) مقتبس عن المطيعي : المصدر السابق، ص19.

([27]) المصدر نفسه، ص20.

([28]) للتفاصيل ينظر : المصدر نفسه، ص156؛ طه باقر: "هذا بعض ما تميز به توينبي" ملحق جريدة الجمهورية ، السنة 1977، ص4؛ محي الدين اسماعيل: توينبي منهج التاريخ وفلسفة التاريخ (بغداد، 1977) ص51.

([29])Toynbee: A Study of History(London, Oxford University Press, 1934-1954)Vol.1,p.82.

([30]) خوري: المصدر السابق، ص49.

([31]) المصدر نفسه، ص49-53.

([32]) Toynbee: Le christianisme et les autres religions du monde, (Paris, 1959).

مقتبس عن عبد القادر زبادية: "القضايا الافريقية المعاصرة في التراث المكتوب للعلامة توينبي" بحث مستل من بحوث مهرجان المؤرخ توينبي (منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1979) ص55.

([33]) العلي: المصدر السابق، ص12.

([34]) المطيعي: المصدر السابق، ص22–30.

([35]) يقول توينبي ان الثقافة القومية والتاريخ القومي هما قوة اساسية كالديمقراطية وان محاربتها هي بمثابة محاربة الله ذاته لذلك ينبغي ان لاتنازعها اية ثقافة اجنبية على احقيتها بمركز الصدارة. محمود زايد:"سيرة الفكر التاريخي عند توينبي" بحث مستل من بحوث مهرجان المؤرخ توينبي (منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1979) ص67–68.

([36]) جواد علي:" توينبي" بحث مستل من بحوث مهرجان المؤرخ توينبي (منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1979) ص17–18.

([37]) Toynbee: Study of History,op.cite,Vol.8,p.312.

([38]) أرنولد توينبي : " لماذا تأخرت وحدة العرب" (المحاضرة الرابعة) القاهرة، ديسمبر 1961. مقتبس عن المطيعي : المصدر السابق، ص74.

([39]) محمود زايد: المصدر السابق، ص69.

([40])أرنولد توينبي: الاسلام والغرب والمستقبل ترجمة نبيل صبحي (القاهرة، 1961) ص26–29؛ المطيعي: المصدر السابق، ص118–119.

([41]) محمود اسماعيل:" المصدر السابق، ص28.

([42]) البراغماتية: مذهب فلسفي اجتماعي يقول بان الحقيقة توجد في جملة التجربة الانسانية لا في الفكر النظري البعيد عن الواقع وان المعرفة آلة او وظيفة في خدمة مطالب الحياة وان صدق قضية ما هو في كونها مفيدة للناس وان الفكر في طبيعته غائي. فالبراغماتية تجعل الفائدة العملية معياراً للتقدم بغض النظر عن المحتوى الفكري او الاخلاقي او العقائدي. من ابرز شخصياتها تشارلس بيرس (1839–1914م) ووليم جيمس(1842–1910م). للتفاصيل ينظر: مانع بن حماد الجهني(مشرف) : الموسوعة الميسرة في الاديان والمذاهب المعاصرة ، ج2، دار الندوة العالمية (الرياض، 2003) ص832–835.

([43]) (1869–1948م) فيلسوف ومناضل سياسي هندي اشتهر بلقب (المهاتما) أي النفس السامية درس الحقوق في لندن 1888–1891م وعمل مستشاراً قانونياً في جنوب افريقيا 1893–1914 دافع عن مواطنيه الهنود عشرين سنة تجاه معاملة الانكليز السيئة عاد عام 1914 ليقود النضال بالطرق السلمية والمقاومة السلبية وكان يضرب عن الطعام مراراً في سبيل تحقيق مطالبه ساهم في مفاوضات استقلال الهند واغتيل على يد هندوسي متعصب. المنجد في اللغة والأعلام (بيروت، 1986) ص503.

([44]) توينبي: اسلوب الحياة الغربية في الميزان (المحاضرة الثانية) ترجمة فؤاد زكريا ، ص46–48.

([45]) محمد توفيق حسين:" ارنولد توينبي المدافع عن العرب في الغرب " بحث مستل من بحوث مهرجان المؤرخ توينبي (منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1979) ص38. طبقاً لما يذكره المؤرخ العراقي صالح احمد العلي فإن توينبي اهتم بالحضارة العربية الاسلامية وكان من نتيجة هذا الاهتمام تعلمه للغة العربية وتوثيق صلته بعدد من العلماء العرب والمستشرقين امثال المؤرخ المصري محمد شفيق غربال والمستشرق البريطاني هاملتون جب. العلي:" توينبي والحضارة العربية" ملحق جريدة الجمهورية ، السنة 1977، ص11.

([46]) فؤاد محمد شبل:" حضارة الاسلام في دراسة توينبي للتاريخ" مجلة الكاتب العربي ،القاهرة ، 1968، ص4.

([47])Toynbee: A Study of History, Vol.4,p.1-2.

([48]) توينبي: المختصر ،ج1، ص207–208، ج3، ص391؛ خوري: المصدر السابق، ص38.

([49]) توينبي : الغرب والاسلام والمستقبل ،ص15-24.

([50]) المصدر نفسه، ص24.

([51]) المصدر نفسه، ص24-25؛ المطيعي: المصدر السابق، ص114.

([52]) توينبي: الغرب والاسلام والمستقبل، ص26-27.

([53]) توينبي: اسلوب الحياة الغربية في الميزان (المحاضرة الثانية) ترجمة فؤاد زكريا ، ص41؛ عبد القادر زبادية: المصدر السابق، ص54.

([54]) يستعمل توينبي عبارة (زيلوتي) Zealous وتعني المتحمس وغلاة الرجعية في اشارة الى المقلدين وعبارة (هيرودي) Hero او Heretic ويعني البطل او صاحب البدعة في اشارة الى المتحمسين في اقتباس مظاهر الحضارة الغربية . للتفاصيل ينظر؛ خوري: المصدر السابق، ص 73-75.

([55]) توينبي: اسلوب الحياة الغربية في الميزان (المحاضرة الثانية)، ص51-54.

([56]) المصدر نفسه ، ص47،ص51-54.

([57]) المصدر نفسه، ص56.

([58]) المصدر نفسه، ص66؛ المطيعي: المصدر السابق، ص117.

([59]) بعد قرار إلغاء الخلافة العثمانية عام 1924م بادر بعض علماء المسلمين والمثقفين وعلى رأسهم الشيخ رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان الى النظر في مسألة مصير الخلافة وقد تم اقتراح عقد مؤتمر إسلامي لمناقشة فكرة اعادة احياء الخلافة الإسلامية وانعقد المؤتمر في أيار / مايس عام 1926م وخرج المؤتمر بموقف خلاصته تاجيل البت في مسألة احياء الخلافة واقتراح عقد مؤتمرات دورية في مختلف البلدان الإسلامية لتبادل الآراء حتى يتفقوا في أمر الخلافة وقد حاولت مصر والسعودية تأكيد زعامتها على العالم العربي والإسلامي. وجيه كوثراني، الدولة والخلافة في الخطاب العربي ابان الثورة الكمالية في تركيا (بيروت، 2000) ص21-23.

([60]) قادة عرب مسلمون أدوا دوراً تاريخياً في التاريخ العربي الاسلامي فنور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي (ت 1174م) كان اتابك حلب وحارب الصليبيين وانتزع منهم الرها وبانياس 1164م وضم الموصل الى دولته 1171م ودفن في دمشق . اما صلاح الدين الايوبي (1138-1193م) مؤسس الدولة الايوبية ولد في تكريت وتوفي في دمشق الغى الدولة الفاطمية في مصر 1171هزم الصليبيين في موقعة حطين الشهيرة 1187م وحرر بيت المقدس وصالحهم . اما المماليك فهم عبيد اتراك وجراكسة ومغول استعان الايوبيون بهم للخدمة العسكرية وتمكن بعض زعمائهم من الوصول الى سدة الحكم واسسوا سلالتين البحرية والبرجية ونجحت دولة المماليك البحرية من الاستيلاء على اخر مواقع الصليبيين في عكا. المنجد، المصدر السابق، ص685.

([61]) خوري، المصدر السابق، ص89-90.